

وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم واستخدمهم<sup>(١)</sup> على حين أنهزم كثيرون منهم إلى طرابزون - الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود - وبلاد الكرج المجاورة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء أو كلها، غير أن الظروف السياسية التي أحاقت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية حتى توافقت لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ، فظل في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

وسأحاول خلال الصفحات التالية أن أستعرض علاقة الخوارزميين بأهم القوى السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ومدى أثر هذه العلاقات على الأوضاع المختلفة في المنطقة.

### أولاً : سلاجقة الروم :

ارتقى علاء الدين كيقباز بن كيخسرو العرش مكان أخيه السلطان عز الدين الذي توفي في الرابع من شوال سنة ٦١٧هـ، فأرسل إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت / ٦٢٢هـ) منشور السلطنة ونيابة حكومة ممالك الروم، والخلعة السلطانية على يد الشيخ شهاب الدين أبي عبد الله بن

(١) ابن واصل : مفرج الكرب ج٤ ص ٣٢٥، ابن خلدون : العبر ج٥ ص ٣٢٥ .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٧٦، وانظر أيضاً : كي لسنش : بلدان الخلافة الشرفية

محمد السهروردي<sup>(١)</sup>، وكان ذلك تعبيراً عن مدى العلاقة الطيبة بين الخلافة العباسية وملوك سلاجقة الروم، الذين كانوا يكتنون الاحترام العميق من الناحية الدينية لخليفة بغداد دون أن يعنى ذلك أى تبعية عملية من الناحية السياسية أو العسكرية.

وفي الحقيقة كان علاء الدين كيقباذ ملكاً حصيفاً ذا أفق بعيد، فلم ير في البداية جدوى في استمرار العداء مع جيرانه الأيوبيين الذين كانوا يسيطرون على الشام وبلاد الجزيرة، وعلى هذا فقد أقدم على الزواج من ابنة الملك العادل الأيوبي (ت / ٦١٥ هـ) ليوثق بذلك الأواصر السياسية بين الطرفين<sup>(٢)</sup>.

وقد أتاحت هذه العلاقات لعلاء الدين كيقباذ أن يوطد حكمه في الداخل، وأن يدعم سلطانه مع جيرانه في هضبة الأناضول وخارجها ففي الشرق نجح في محاربة الكرج والقبجاق والروس، فامتد نفوذه بذلك إلى سواحل بحر قزوين، وفي الغرب احتفظ بعلاقات متكافئة مع دولة الروم البيزنطيين التي امتدت أملاكها لتشمل الجزء الغربي من هضبة الأناضول في آسيا الصغرى، وفي الجنوب نجح في إخضاع مملكة أرمينية الصغرى لنفوذه وفرض عليها الجزية، كما استولى على عدد من القلاع الحصينة على ساحل البحر الأبيض ومنها «كلونوروس» التي أطلق عليها اسمه فصارت «العلائية» وكذلك قلعة «آلاره»<sup>(٣)</sup> وغير ذلك مما أحكم قبضته على الساحل الجنوبي لبلادها على هذا البحر، وفي الشمال وطّد سلطانه على أغلب السواحل الجنوبية

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ١١٦ .

(٢) لذهبي : العبر في حبر من غير حده ص ١٣٩، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب حده ص ١٦٢ .

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ١٢٦، العريني : المغول ص ١٠١ .

للبحر الأسود وبخاصة ميناء سينوب<sup>(١)</sup> الذي كان قد فتح في أيام أخيه السلطان عز الدين بن كيخسرو.

وعلى الرغم من ذلك كله كان علاء الدين لا يرى محاربة المغول لأنهم أصحاب دولة فتية وجيش قوى مدرب، مكنهم من تحقيق انتصارات ساحقة على أعداء متعددين، لذلك استصوب فكرة مهادنتهم، وتقديم الهدايا لهم تسكيناً لثأرتهم وتفادياً لشرهم.

وقد اتضح هذا الرأي في رده على السفارة الثانية التي أرسلها إليه السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي عندما كان جيشه محاصراً لمدينة «أخلاق» التابعة للملك الأشرف الأيوبي فقد قال «أما الآن وقد تحقق أنه (أي السلطان جلال الدين) صرف همته لمحاصرة قبة الإسلام «أخلاق» بتسويل أصحاب الأغراض، وما هم إلا شياطين الانس، فإن الأمر يبدو بعيداً عن الرأي السديد، ونحن وفقاً لحكم الحق تعالى: ﴿وأمر بالمعروف، وأنه عن المنكر﴾ نجهر بالقول بأنه أولى به أن ينثنى عن هذه المدينة، ويقصد ملكاً من ممالك المشركين، وهناك مصلحة أخرى من باب النصيحة التي هي الركن الأهم والباب الأعظم للدين والملك، وهي أن يسلك مع جيش التتار طريق الإدارة والمهادنة، وأن يقرع - كلما تمكن من ذلك - باب المصالحة من جانبه وبكل ما في وسعه، وإنه ليجول بخاطري وضميري أن أرسلُ رسلاً إليهم، واعتذر لهم عما بدر من السلطان علاء الدين محمد - أنار الله برهانه - من تعجيل، وذلك لصالح المسلمين أجمعين، كي تنطفئ جمره الفتنة التي استولت على أطراف الخافقين بلين المقال وبذل المال<sup>(٢)</sup>.

ولم يلق السلطان الخوارزمي لذلك النصح بالأ، وانتهى الأمر إلى

(١) كي لسترش: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧٥.

(٢) ابن البيبي: أخبار سلاجقة الروم ص ١٩٧ - ١٩٨.

استيلائه على مدينة أخلاط ثم نشوب الحرب بينه وبين التحالف السلجوقي الأيوبي، وهزيمته على مقربة من أرزنجان سنة ٦٢٧هـ. (١) ومقتله في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ، وتفرق جيشه في أنحاء شتى، وهروب نوابه بمدينة أخلاط في اتجاه الشرق إلى مدينة أران (٢).

وقد فاجأ المغول - بعد أن حلوا مكان السلطان الخوارزمي في الشمال الغربي من إيران - السلطان السلجوقي علاء الدين بتوغل فرقة مغولية من جيشهم سنة ٦٢٩هـ في نواحي «سيواس» فقتلت وأسرت واسترقت الكثير من الخلائق والمواشى، فلم يجد السلطان السلجوقي بدأً من إرسال جيش بقيادة الأمير كمال الدين كاميار إلى «سيواس» لمواجهة هذا الحدث فما أن وصلها حتى كانت الفرقة المغولية قد عادت أدراجها، فتبعها الجيش السلجوقي حتى حدود أرزن الروم، ثم توقف بعد أن وصلت الأنباء أن هذه الفرقة المغولية قد اجتازت ممر «يونس» في طريقها إلى مركز التجمع الرئيسي للجيش المغولي في صحراء «موقان» (٢) الواقعة على ساحل بحر قزوين.

ولما كان الأمير كمال الدين كاميار قد أصبح من جراء ذلك في وضع حرج، فإنه قد رأى ألا يعود إلى سلطانه خالي الوفاض، فرأى أن يهاجم مملكة الكرج متذرعاً بأن ملكة الكرج قد أغرت المغول بدخول ممالك السلطان وتمكن الجيش السلجوقي من انتزاع الكثير من القلاع الكرجية الحصينة، مما أدخل الرعب في قلب ملكة الأبخاز المجاورة، فأرسلت إلى الأمير كمال الدين كاميار تطلب عدم الاعتداء على مملكتها أو تخريب أطرافها وتعلن الخضوع للنفوذ السلجوقي وتعرض ابنتها للزواج من السلطان السلجوقي، الذي قبل ذلك العرض وأمر بعدم تعرض عسكره لولاية الأبخاز.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٧٣، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٤٠٣

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج٥ ص ١٢٣، أحمد حلمي: السلاجقة

في التاريخ والحضارة ص ٩١.

(٣) ابن أبي عمير: السابق ص ٢١٩ - ٢٢٠.

وهكذا تأكدت الاستراتيجية العسكرية لدى سلاجقة الروم والتي لم تكن تختلف كثيراً عما لدى نظرائهم الأيوبيين، وتتمثل في اجتناب الصدام العسكري مع المغول في مقابل الاستحواذ على ممتلكات جديدة على الحدود، وبخاصة في أعالي الفرات، فكان حتمياً أن تؤدي هذه الاستراتيجية المشتركة إلى نشوب الصراع بين الطرفين<sup>(١)</sup>.

### التحرك الخوارزمي الأول (أخلاط - الأناضول) :

ايقن السلطان السلجوقي علاء الدين كيتباذ أن الملك الأشرف الأيوبي - صاحب الجزيرة - قد استقر بدمشق، وأنه لا يعير اهتماماً لما يحدث بديار الأرمن في الوقت الذي يتابع فيه جيش المغول غاراته دون انقطاع، ويقبض على بقايا الرعية فيأخذهم أسرى، كما كان جانب من الجيش الخوارزمي قد تفرق مشرداً في تلك الأطراف، فأخذ أفرادَه في قطع الطريق<sup>(٢)</sup>، ومن ثمة أرسل السلطان قائده كبير الأمراء كمال الدين كاميار على رأس جيش وأمره أن يعمل على إلحاق ديار الأرمن من «أخلاط» و«بدليس» حتى نواحي «تفليس» بسائر مملكته، فلما بلغ الجيش «أخلاط» حمل بعض أهلها الراية في الحال، واقسموا على الولاء للسلطان السلجوقي وجعلوا الخطبة باسمه<sup>(٣)</sup>.

وجاءت المشكلة هذه المرة من ناحية الخوارزميين الذين كانوا قد تجمعوا آنذاك في المناطق القريبة من مدينة أخلاط تحت زعامة عدة من الأمراء منهم قيرخان، وبركة خان، وكشلوخان، وصاروخان<sup>(٤)</sup>.

(١) السيد العريبي : المغول ص ١٧٩.

(٢) ابن تظيف الحموي : التاريخ المنصور ص ١٧٥.

(٣) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٤) أبو الفندا : المختصر ج ٣ ص ١٥٩، عفاف صرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية

وقد اختلفت الآراء حول هذا التجمع الخوارزمي، ما بين عشرة الآف شخص<sup>(١)</sup> واثني عشر الف فارس<sup>(٢)</sup> والتقدير الثاني يعنى أن مجموع الخوارزميين بنسائهم وأولادهم كان يزيد على ضعف هذا العدد تقريباً، ويؤيد ذلك الرأى القول «بأن جمهورهم قد سار إلى بلاد الروم فنزلوا على ملكها علاء الدين كيقباز»<sup>(٣)</sup>.

وأكد على ضخامة هذا العدد وخطورته مدى الاهتمام الكبير الذي أظهره نحوهم السلطان السلجوقي علاء الدين، فقد أرسل إليهم قائد جيشه الأمير «سنان الدين قيماز» الذي كان يدرك بخبرته أن ولاية «أخلاق» ليست آمنة من جهة هؤلاء الخوارزميين، ومن ثمة توجه إليهم مسالماً، حتى إن «قيرخان» كبير الخوارزميين آنذاك تملكه العجب من أمر هذا القائد الذي أستاذن في زيارة زوجة «قيرخان» وأبلغها السلام، وواساها ثم عاد إلى قيرخان وطلب طعاماً على سبيل التبسط ثم أخرج مصحفاً شريفاً وأقسم عليه بأن أمراء السلطان لا يحملون في قلوبهم أي ضغن لقيرخان وسائر أمراء الخوارزمية، ولن يسيئوا إليهم، وكل ما يعولون عليه أن ينتقلوا من هذا التشرذ إلى حالة الأمن والاستقرار، وليس أدل علي ذلك من أن السلطان علاء الدين قد قال للأمير كمال الدين كاميار أن يدخلكم في دائرة الطاعة، فإن وافقكم هذا الأمر، فإنه يتعين على «قيرخان» وسائر الأمراء أن يقسموا جميعاً بأنهم مع السلطان في السر والعلن» فاجتمع قيرخان والأمراء الخوارزميون بأسرهم وأقسموا على ذلك<sup>(٤)</sup>.

وعند حدود مدينة أخلاق - التابعة آنذاك لسلاجقة الروم - استقبل

(١) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٧٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٢٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج٢ ص ٣٥٥ .

(٤) ابن البيهقي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٢٤ .

كبير الأمراء كمال الدين كاميار الأمراء الخوارزميين وعلى رأسهم قيرخان. وقسّم - بتوقيعات سلطانية - كل ولايات أرزن الروم عليهم، ووعد بتعزيز كامل لهذا الإجراء عند وصولهم إلى خدمة السلطان السلجوقي في العاصمة (قيصرية)، فارتحل - في اليوم التالي - قيرخان بجملته الأتباع الخوارزميين إلى أرزن الروم<sup>(١)</sup>.

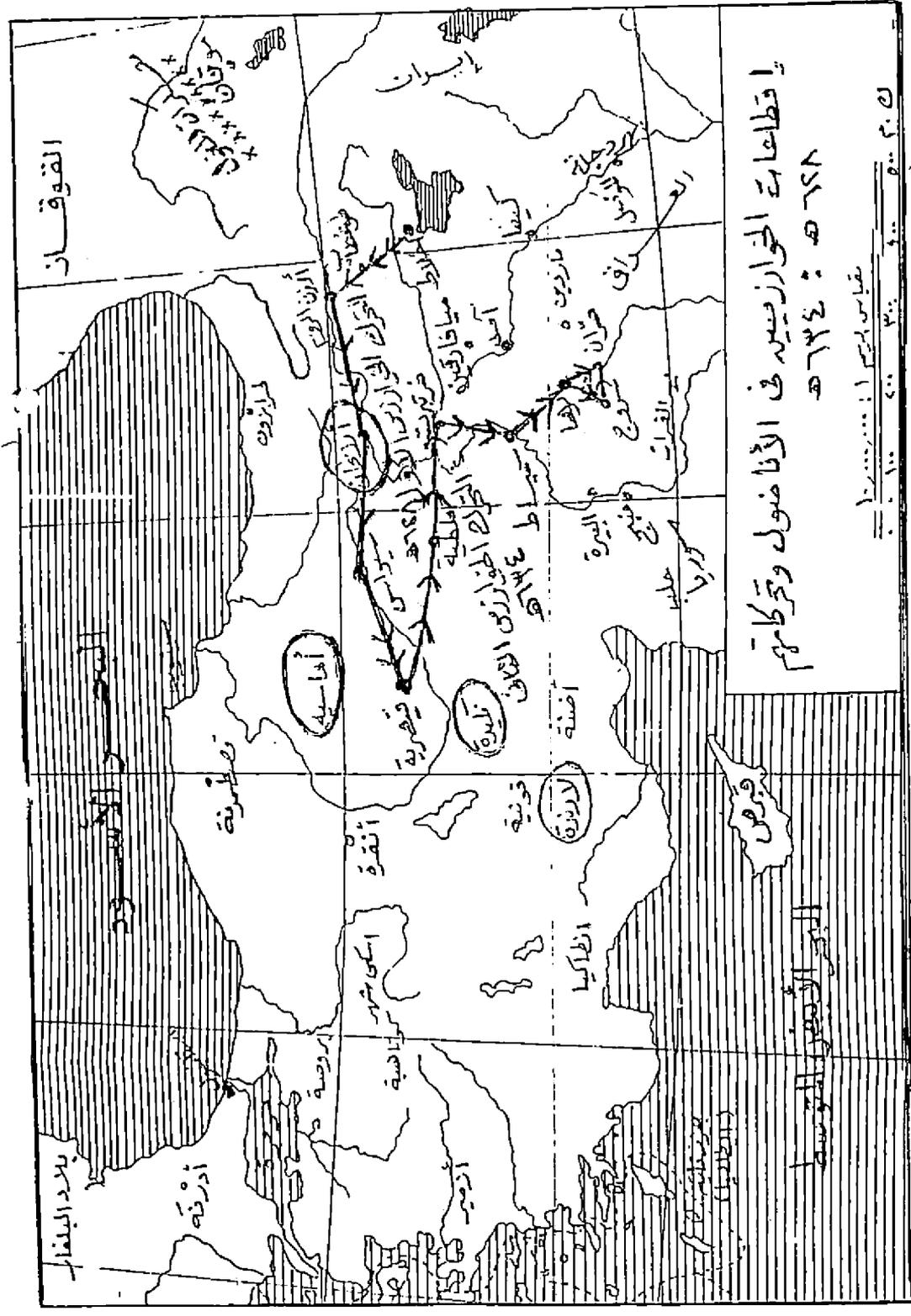
وفي الطريق من أخلاط إلى أرزن الروم وعند منطقة «طوغطاب» أغارت على الخوارزميين - من ناحية موغان - فرقة مغولية، فقتل عدد كبير منهم وتشرد الباقون في الوديان فرادى وجماعات، فانطلق المغول عقب ذلك إلى مدينة أخلاط فحاصروها - وكانت آنذاك تحت السيطرة السلجوقية - وفي الفجر - كعادة المغول عند الانسحاب - ارتحلوا تاركين نيران معسكرهم مشتعلة<sup>(٢)</sup> وقد أسفر هذا الأمر عن نتائج مهمة منها :

- ١- تمكن رعب المغول من قلوب الخوارزمية عقب تلك المباغته حتى إنهم قرروا ألا يدخلوا بعد ذلك في مواجهة عسكرية معهم<sup>(٣)</sup>.
- ٢- انسحاب الحامية السلجوقية من مدينة أخلاط مؤقتاً خوفاً من التعرض للحصار المفاجئ بداخلها من قبل المغول الذين انهمكوا في تثبيت سلطانهم على الشمال الغربي من إيران.
- ٣- اتخاذ مدينة أرزن الروم مركزاً لتجمع كافة الخوارزميين في الأناضول تمهيداً لنقلهم إلى العاصمة السلجوقية قيصرية حيث كان السلطان علاء الدين كيقباز في انتظارهم لتطبيب خواطرهم وزيادة الاطمئنان في نفوسهم.

(١) ابن السبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٢٧، يذكر الدكتور السيد الباز العريني في كتابه المغول ص ١٧٧، إن السلطان علاء الدين كيقباز كان يأمل في استخدام خوارزمية أن يكونوا حماية لحدوده مع أرمينيا من خطر المغول .

(٢) ابن السبي : سلاجقة الروم ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٣) عناس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٤٠٦ .



# إقطاعات الجواريبييه في الأناضول وتحركاتهم

٦٤٢ هـ : ١٣٤٤ هـ

نقاييس الجسيمات الجوية

البحر الأبيض المتوسط

فارس

بغداد

الانكا

قونية

أضنة

تلدو

أها سيه

تفلقينه

أدرنه

البحر الأبيض المتوسط

بلاد البغداد

القوة



وقد رأى انسلطان السلجوقي أن يوزع بعض الإقطاعات المتفرقة على كبار أمراء الخوارزميين، فجاء التوزيع على النمط التالي :

- قيرخان      ارزنجان      - شمالي الأناضول .
- بركة خان      آما-سيه      - شمال الأناضول .
- كشلو خان      لارنده      - جنوبي الأناضول .
- يلان نوغو      بكيدة<sup>(١)</sup>      - جنوبي الأناضول .

ولايعنى هذا التقسيم الجغرافي أن الخوارزميين قد وزعوا على هذه الإقطاعات . ليعيشوا فيها متفرقين عن بعضهم، فقد كانت استراتيجية السلطان السلجوقي تتمثل في إحكام قبضته عليهم جميعاً في مكان واحد من جهة، ووقاية الممتلكات السلجوقية من خطرهم من جهة ثانية، وتسخير قوتهم العسكرية في خدمة أغراض التوسع السلجوقي على حساب جيرانه في الجنوب وبخاصة الأيوبيون من جهة ثالثة .

وأدى تكرار استيلاء الجيش السلجوقي المدعم بالقوات الخوارزمية على مدينة أخلاط إلى إثارة حفيظة الأيوبيين الذين تحركوا تحت قيادة السلطان الكامل سنة ٦٣١ هـ لمهاجمة حدود السلاجقة في جنوبي الأناضول<sup>(٢)</sup> .

وفي المقابل وجّه السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد إلى هذا التجمع الأيوبي الضخم جيشاً كبيراً أوفى على المائة الف - حسب رواية ابن العبري - اجتمع فيه الخوارزميون والفرنج واليونان والأرمن والكرج<sup>(٣)</sup> .

أما المؤرخ ابن البيبي فيقتصر الجيش السلجوقي على الروم والخوارزميين

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٢٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٤ ، المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٤٧ .

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٠ .

فقط فيقول : « وصل السلطان ( يعنى علاء الدين كيقباز ) بعساكر وفيرة وبصحبته أمراء الروم وخوارزم، ومالا حصر له من العتاد والعدة، وكان الخوارزمية والروم يخرجون من الممرات ويشتبكون في القتال مع رجال الشام فيقتلون ويجرحون الكثيرين منهم دون أن يلحق بهم أذى من قبل جيش الشام<sup>(١)</sup> .

وانتهت المعركة بهزيمة الجيش الأيوبي، ووقوع الملك المظفر الأيوبي صاحب حماة في الأسر، كما وقع غيره من كبار الأمراء وعلى رأسهم الطواش صواب فحملوا إلى السلطان علاء الدين كيقباز صاحب الروم ، فخلع عليهم وأحسن إليهم، وأطلقهم، وعاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية وقد حصلت الوحشة بينه وبين أخيه الملك الأشرف، والملك المجاهد صاحب حمص، وجميع الملوك الذين كاتبوا سلطان الروم، ولذلك فإنه في طريق عودته إلى مصر اعتقل الملك السعود صاحب آمد بحكم أنه من جملة من كاتب سلطان الروم<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٦٣٢ هـ خرجت عساكر سلاجقة الروم نحو آمد، فأقاموا عليها ثم نزلوا مدينة السويداء القريبة من حران فأخذوها، وأخذوا أيضاً بعض القلاع في حران والرها<sup>(٣)</sup> أما الخوارزميون وعلى رأسهم « قيرخان » وسائر أمراء خوارزم فإنهم انطلقاً من الحقد الذي ملاً قلوبهم من جهة الملك شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين، والملك المنصور صاحب ماردين، والملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ، لكونهم لم يلتفتوا إلى السلطان جلال الدين عندما لجأ إليهم، فقد عمدوا إلى الإغارة على تلك البلاد فأشاعوا الخراب حتى أبواب

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٩، المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٤٨ .

(٣) ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٤ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦

ص ٢٨٧، ابن سباط : صدق الأخبار ج ١ ص ٣٠٧

سنجار حيث أعملوا فيها القتل والسبي والحرق والنهب<sup>(١)</sup>.

ويظهر أن صاحب ماردین قد رأى تحت الضغط الخوارزمي أن يعلن ولاءه للسلطان السلجوقي، وكان ذلك يعنى من وجهة نظر الأيوبيين إعلان الحرب ضدهم، ومن ثمة فقد أعاد السلطان الكامل في سنة ٦٣٣ هـ يصحبه أخوه الأشرف الكرة على بلاد الجزيرة لاسترجاع ما اغتصبه السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباز الذي انسحبت قواته بما فيهم الخوارزميين من الجزيرة<sup>(٢)</sup> فتمكن الملك الكامل من استعادة الرها وحران من نواب السلطان السلجوقي بعد حصار طويل وقتال شديد، ثم خرب الكامل قلعة الرها وقبض على جميع من فيها وفي حران من بلاد الروم وقيدهم وسيرهم إلى الديار المصرية في جوالق على الجمال فمات أكثرهم من كثرة الشدائد التي نالهم في الطرقات وكانوا أزيد من ثلاثة آلاف نفس<sup>(٣)</sup>.

وانطلقت القوات الأيوبية نحو ماردین لمعاينة صاحبها على تحالفه مع سلاجقة الروم، وتعرضت مدينة دُنيسر الواقعة جنوبي ماردین للتخريب والنهب والقتل فلم يسلم من ذلك سوى الجامع<sup>(٤)</sup> فلما ورد كتاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى الملك الأشرف بأن المغول قد قطعوا نهر دجلة في مائة طلب، كل طلب خمسمائة فارس ووصلوا إلى سنجار، بادرت القوات الأيوبية بقطع نهر الفرات عائدة إلى دمشق، ورجع المغول أيضاً عائدين فعبروا الفرات<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٩٥، عماد خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص ١٩٠.

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٩، أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٨، ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٢.

(٤) النويري : نياية الأرب ج ٢٩ ص ٢٠١، عماد خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص ١٩٠.

(٥) ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٦، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٣.

وفي نفس السنة ورد على السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباز أمر ملكي عن الخاقان الأعظم المغولي أوكتاي كان نصه « يعلم العاهل العادل السلطان علاء الدين أننا قد انتهجنا منهجاً حسناً في الحكم وسياسة الرعية، والقادمون والذاهبون عنك راضون، ولقد سمعنا ورضينا كل الرضا، وأرسلنا إليك ما يعبر عن رضانا ومودتنا، وأردنا أن تبقى على الدوام سعيد القلب في ملكك، ولما كان الله تعالى قد جعلنا عظماء وأعزنا ووهب سطح الأرض لقبيلتنا، ولما كنت أنت تسلك الطريق المرضي، فقد أصبح واجباً علينا إظهار حالنا لك، وإطلاعك عن طريق الرسل والمؤتمرين بالأمر، ونحن إذا أظهرنا أحوالنا، ولم يُسمع لنا كان جزاء من لا يسمعون أو يلوون رؤوسهم أن يقتحم جيشنا ولايتهم، فيقتلهم ويأسر النساء والأطفال، ويغير على الأموال، ويخرب المتاع، وينزل به الضرر والسوء، ولأنكون نحن السبب في ذلك، كتب في سنة بيجين سنة ٦٣٣ هـ من مقام بلاط سبزه (١) .

ولم يجد السلطان السلجوقي المسلم حرجاً في إعلاء الولاء للمغول الوثنيين، وأمر بإعداد التحف والهدايا والطرائف الرومية وإرسالها إلى بلاط الخاقان المغولي أوكتاي قآن، فأصبحت بلاد الجزيرة بذلك - بعد أن تراجع المغول عنها شرقاً وعاد الأيوبيون عنها غرباً - ساحة مفتوحة أمام الجيش السلجوقي المدعم بقوات خوارزمية .

وقد بادر هؤلاء الخوارزميون بالتوجه إلى حليف سلاجقة الروم الملك المنصور صاحب ماردين، فنزل إليهم واشترك معهم في أعمال النهب والتخريب التي امتدت إلى مدينة نصيبين التي فعلوا فيها أعظم مما فعله الأيوبيون بمدينة دنيسر (٢) .

(١) ابن السبيعي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٤٢ - ٢٤٣، ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٧٩،

وهو يذكر هذا الحدث في سنة ٦٣٠ هـ ورواية ابن السبيعي أدق للمعاصرة ووحدة الموضع

(٢) سبط بن الخوزي : مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٩٥، عماد لدين حبيب . (مآثر الأرتقية في

كذلك اشترك الخوارزميون في محاصرة مدينة آمد سنة ٦٣٤هـ (١) وكان في نفوسهم الكثير من الحقد تجاه أهلها الذين كان - أغلقوا أسوارها في وجه السلطان الخوارزمي الراحل جلال الدين منكبرتي وقذفوه بالحجارة حين توجه إليهم لاجئاً من المغول الذين كانوا يطاردونه سنة ٦٢٨هـ، غير أن الشتاء القارس في سنة ٦٣٤هـ فد حتم عودة الجيش السلجوقي والخوارزميين عنها إلى حين آخر (٢) .

### وفاة السلطان علاء الدين

كان علاء الدين كيقباز قد رأى أن يجمع الجند في سنة ٦٣٤هـ في عاصمته قيصرية استعداداً لغزو بلاد الشام، وأدخل عقب ذلك تعديلات جذرية في المناصب المهمة للدولة، فجعل ولاية عهده إلى ابنه الملك عز الدين قلع أرسلان كما فوض إلى قيرخان كبير أمراء الخوارزمية أمر العناية بسيواس (٣) .

ويظهر أن تكليف الخوارزمية بهذا الأمر كان يقصد به إبعادهم عن المشاركة في غزو الشام، فلم تكن سيواس واحدة من الإقطاعات الأربعة التي سبق أن أنعم السلطان السلجوقي بها على الخوارزمية، كما أن موقعها الجغرافي في شمالي هضبة الأناضول يجعلها بمنأى عن الطرق الجنوبية المؤدية إلى شمالي الشام .

ولم يمهّل القدر السلطان علاء الدين كيقباز طويلاً ، فقد توفي فجأة في السابع من شوال سنة ٦٣٤هـ (٤) ، فبادر ابنه غياث الدين كيقباز إلى تسيير الدعاة إلى أكابر الأمراء في الدولة ، يدعوهم إلى موالاته ومناصرته في

(١) ابن العري : تاريخ الزمان ص ٢٨٢ .

(٢) ابن البيبي أخبار سلاجقة الروم ص ٢٤٠ .

(٣) ابن البيبي : المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٤) الذهبي . العبر حد ص ١٣٩ ، ابن العماد الحنطلي : شذرات الذهب حد ص ١٦٨ .

الوصول إلى العرش بدلاً من ولي العهد عز الدين قلعج أرسلان، فوجد استجابة سريعة من معظمهم<sup>(١)</sup>.

وتشكلت جبهة معارضة تكونت من كبير الأمراء كمال الدين كاميار، وقيرخان رئيس الخوارزمية، والأمير حسام الدين قيمري الذي أخذ يقول «إن الملك عز الدين موجود في ( كيقبادية )، ولا بد لنا من الحفاظ على عهدنا مع السلطان السابق، وذلك بأن نجلس عز الدين على العرش، ومن عارضنا أحللنا دمه، الجيش معنا، وولاية العهد بأيدينا، وإذا عارضنا مؤيدو غياث الدين حطمناهم، فوافق قيرخان رئيس الخوارزمية على هذا الأمر بينما توقف فيه كبير الأمراء كمال الدين كاميار، والتمس لنفسه حججاً وتعلات، وأخيراً وبعد صلاة العشاء رأى الأمراء الثلاثة أنه لا جدوى من الماطلة والمضايقة، فدخلوا المدينة وهنأوا السلطان غياث الدين كيخسرو بالسلطنة، وحلفوا له بيمين الولاة<sup>(٢)</sup>.

وبالطبع أدى هذا التلكؤ في إعلان الولاة من قبل رئيس الخوارزمية إلى اعتماد بواعث الشك في نفس السلطان السلجوقي الجديد وبالتالي استجاب لوشاية أحد كبار الأمراء ويدعى سعد الدين كوبك حين ألصق تهمة باطلة بقيرخان فزعم للسلطان السلجوقي بأنه سيضرب صفحاً عن الولاة له، وسيغري به الأعداء إذا ذهب عن هذه المملكة إلى مكان آخر، حيث إنه قد وقف على ما للملك السلجوقي والجيش من دخائل والرأي أن يقيد لكي يلزم الآخرون جادة الإخلاص رعباً ورهباً، ولا يفكرون في مفارقة هذه الحضرة، فأمر السلطان باحضاره فحبسوه في مسجد قصر السلطنة، وحملوه بالليل مقيداً إلى قلعة «زمنديو» فابتلى هناك بمرض وتوفي<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٤٨ .

(٢) ابن البيبي : المصدر السابق ص ٢٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٣٢، ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٥٠ .

## التحرك الخوارزمي الثاني (الأناضول - الجزيرة)

لما سمع الأمراء الآخرون من الخوارزمية بذلك الأمر لاذوا جميعاً بالفرار، فعمّ التزلزل وفشى الاضطراب في البلاد، وتعرضت الولاية بأسرها للنهب والغارة، فقد انطلق الخوارزميون في اتجاه الشرق إلى ملطية ثم عبروا الفرات إلى خربت (حصن زياد)<sup>(١)</sup> فاعترضهم شمس الدين بيرم صاحب الحصن والأمير سيف الدولة ارتقى قائد جند ملطية مع عسكر من الروم فأرسل الخوارزميون إليهم برسالة مضمونها «قد انتقلنا من التشرذم إلى الهناء والدعة في ظل السلطان السابق، فلما انتقل إلى جوار ربه ألقيتم بقائدنا «قيرخان» في السجن دون جرم جناه، فتركنا خدمة هذه الأسرة الملكية خوفاً على أرواحنا، وانطلقنا نجوس خلال الديار طلباً للرزق، والمصلحة أن تعودوا أدراجكم وألا تلجئونا إلى الإعراض عن رعاية حقوق النعمة وأكل الخبز

= ويروي المؤرخ ابن واصل (ت ٦٩٧هـ) في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٥ ص ١٣٥ أن الذي قبض عليه هو بركة خان الذي كان أكبر مقدمي الخوارزمية ثم أنه قد خلس فيما بعد من يد غياث الدين كيخسرو ملك الروم. وقد نقل عنه هذا الرأي المؤرخ أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) في كتابه المختصر في أخبار بني البشر ج ٢ ص ١٥٩، كما نقله أيضاً المؤرخ ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) في كتابه تنمة المختصر في أخبار بني البشر ج ٢ ص ٢٣٧، وبقمت هذا الرأي أيضاً الدكتور عفاف صبره في كتابها التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية ص ٢٧٢، ويحالف هذا ما أورده في المتن منقولاً عن ابن العديم (ت ٦٦٦هـ) في كتابه زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٣ ص ٢٣٢، والذي يؤكد فيه أن القبض قد تم على قيرخان وأنه توفي في السجن، وكذلك عن ابن البيبي (ت ٦٨٤هـ) في كتابه أخبار سلاجقة الروم ص ٢٥٠، وروايتها أدق وأصح فابن العديم قد أوفد في السفارة من حلب إلى قيصرية في أيام لسلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو وابن البيبي أسق زماً ومعاصرة من ابن واصل وأبي الفداء وابن الوردي، فقد كانت أمة منجمة للسلطان علاء الدين كيقباد، وكان أبو مجد الدين محمد الترجمان رئيس ديوان الإنشاء الخاص بيدي السلطان .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج ٣ ص ٢٣٢، ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٣، العريني : المغول ص ١٨٢ .

والملاح<sup>(١)</sup> غير أن جند الروم لم يعبأوا بهذه النصائح لفرط ما بهم من غرور وعجب، واصطفوا في مواجهتهم للقتال فقتل شمس الدين بيرم صاحب خربت و أسر سيف الدولة ارتقش، واستولى الخوارزميون على الكثير من الخيول والأمتعة من تلك المعركة<sup>(٢)</sup>.

ثم انحدر الخوارزميون جنوباً فأغاروا على بلد سُمِّيَ ساط - الواقعة غربي الفرات التي يقول عنها ياقوت الحموي، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن<sup>(٣)</sup> - فغزوه، ثم وصلوا الانحدر جنوباً إلى داخل بلاد الجزيرة فاستولوا على مناطق قريبة من حران والرها والرقه وسروج وغيرها من المواضع<sup>(٤)</sup>.

وأسفر هذا الوضع الجديد للخوارزميين في بلاد الجزيرة عن نتائج خطيرة فقد أضحي ملوك الشام وديار بكر وربيعة ومضر وباقي الجزيرة خائفين محترزين خشية ما يصدر عن هؤلاء الخوارزميين من إغارات ومفاجآت، واضطروا اتقاءً لذلك إلى إرسال الأتاوات من كل صوب إلى قوادهم الذين بذلوا لهم نظير ذلك العهود والمواثيق بعدم الاعتداء، غير أنهم كانوا يتوغلون في بعض الأوقات داخل الحدود، ويحولون دون تردد القوافل جيئة وذهاباً<sup>(٥)</sup>.

ويعكس هذا الموقف الخطير مدى الضرر الاقتصادي الذي أصاب هذه المنطقة من جراء نزول الخوارزميين فيها، ففقدان حالة الأمن والاستقرار يؤثر حتماً على استمرار عمليات الزراعة والحصاد، ويشل حركة الرعي، كما أن تهديد القوافل التجارية يؤدي بدوره إلى توقفها أو تحويلها إلى طرق أخرى

(١) ابن السبيي : أخبار سلاحة الروم ص ٢٥١ .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٣ ، ويحدد كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٩ ، مكان خربت على الضفة الجنوبية لنهر الفرات الأعلى .

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ص ٢٨٣ ، وانظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٨ .

(٤) ابن السبيي : أخبار سلاحة الروم ص ٢٥١ .

(٥) ابن السبيي : السابق ص ٢٦١ .

بعيدة وآمنة، فيترتب على ذلك الركود الاقتصادي سدي يستل في قمة المعروض من السلع وبخاصة الغذائية منها، وارتفاع الأسعار - ارتفاع الغلاء، فيعجز الأهالي عن تصريف شئون حياتهم.

وقد حاول السلطان السلجوقي الجديد غياث الدين كيخسرو معالجة هذا الأمر فأرسل إلى الخوارزميين «مجد الدين الترحمان» الذي كان قد نال الحظوة عندهم منذ أيام سلطانهم الراحل جلال الدين منكبرتي (ت/ ٦٢٨هـ) فدعاهم إلى العودة إلى بلاد الروم على سبيل استمالتهم وإنالتهم المقصود، فلزموا حسن الاستماع ولبسوا خلع السلطان وفي اليوم التالي - بعد الاجتماع - استدعوا الرسول وقالوا له: «قد تفرقنا بسبب وقعة «قيرخان» وفي الطريق أرغمنا على الاشتباك مع الأمراء الذين كانوا قد جاءوا لاستردادنا، فأنزلنا بهم هزيمة نكراء، ولازلنا إلى الآن نخوض في تيه تلك العثرة، فكيف يتسنى لنا أن نضع أقدامنا على بساط تلك الحضرة برغم كل ما صدر عنا من تجاوزات، لكننا نعدُّ هذه البلاد التي ابتلعناها من جملة ممالك السلطان، فنتولى تصريف أمورها إذا ما أنعم السلطان علينا بها بمنشور سلطاني باعتبارها إقطاعاً، ويكون له علينا أن نجعل أرواحنا فداء له في مواجهة كل عدو يعهد به إلينا، كما نجعل الخطبة والسكة باسم السلطان، ولن نسمح بالقطع (تعرض ممالك السلطان لأي اعتداء من جانب عسكري الخوارزميين)، فقرّر القرار على هذا كله، وبادروا بتغيير الخطبة والسكة، وقد راق ذلك الرأي للسلطان<sup>(١)</sup> السلجوقي الذي كان في حاجة إلى تثبيت سلطانه داخل بلاده، كما كان بحاجة أيضاً إلى تدعيم علاقاته بالقوى السياسية المجاورة وبخاصة المغول والأيوبيون في الجزيرة والشام.

(١) ابن البيبي : أخبار سلاجقة الروم ص ٢٦٣ .